بالأصوات العشوائية الواهية اللامعقولة التى تصدر دون أى تفكير وتدبير أو تخطيط وتنظيم! وأما الإنسان ذو العقل السليم المفكر المدبر و صاحب القلب الذكى الواعى النزيه ، فلا يتصور منه أن يشبه البهائم فى شئ ، ويجرى على لسانه أو قلمه مالا يعنى شيئا أو ما تأتيه البائم ، إذ لم يخلقه ربه عبثا ، وإنما خلقه عاقلا ناطقا مكلفا مسئولا فكيف يجوز له أن يأتى بما يدل على عبثه وعشوائيته وأنى له أن يأتى إلا بعمل مخطط منظم قد أريد به هدف ! و بالتالى لايمكن للإنسان الأديب أن ينتج ما يدل على العبث والعشوائية أو مالا ينفع المجتمع البشرى ويضره ، فذلك هو الأدب الهادف والملتزم الذى هو الأدب للحياة الواقعة الفاضلة الكريمة التى وعدا الله بها عباده فى أرضه من حياة الهدوء والطمانية والسعادة والخير!

ولقد قالوا فى القديم والحديث بأن الأديب والشاعر أو الفنان إنما هو حيوان اجتماعى لايعيش إلا بالمجتمع ، وفى المجتمع ، ومن أجل المجتمع ، إنه لايعيش فى الجبال والأودية والصحارى والبوادى كما أنه لا يعيش فى الهواء أو الخلاء ، وإنما يعيش بين الناس وبهم ومن أجلهم ، وقد رأينا البهائم التى لا عقل لها ولا كلام ، تعيش بين أبناء جنسها وبها وليس من أجلها ، ولكنها ، رغم ذلك ، لا تضرها بشئ فى شئ! أفيمكن أن يكون الإنسان العاقل الناطق أعجز من الحيوان الأعجم والبهيمة التى لا عقل لها ولا كلام ! إن الكاتب أو الشاعر إنما هو وليد مجتمعه وصنيع بيئته فيتأثر بما يحدث حوله وما يحيط به من الظروف والأوضاع ، وبذلك تتكون سيرته و تتجلى مواهبه ، وهو بدوره يصنع بيئته فيؤثر فيها ، أفليس من واجب هذا الكاتب أو الشاعر أن يغير ما حوله فيحوله إلى خير و إلى أحسن مما وجده عليه ، ولا يغيره ولا يحوله إلى شرو أقبح مما وجده عليه! وذلك هو مما يقتضيه الواجب الاجتماعى ويطالب

به مبدأ الإحسان الذى ليس لـه جـزاء غـير الإحسـان ، وذلـك كلـه يقـود إلى شرف الكلمة وكلمة الشرف!

وقد ذم الكتاب العزيز اليهود الذين لم يعرفوا شرف الكلمة فحرفوهـا عـن مواضعهـا "و يحرفـون الكلـم عـن مواضعـه " كمـا أن الرسـول الأعظـم الأفصح صلى الله عليه وسلم قد أوعد الذين لا يعرفون شرف الكلمة وكلمـة الشرف ، فلا يقدِّرون شرف الكلمة ولا كلمة الشرف فيدخلـون نـار جهنـم: "هل يكب النـاس علـى منـاخرهم فـى النـار إلا حصـائد ألسـنتهم!؟" وينتهـى الكلام ويتم الباب بقـول الله عزوجـل " لا تَقْـفُ مـا ليـس لـك بـه علـم إن السمع والبصر و الفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا!!" ومن ثم شرف الكلمة و كلمة الشرف من إرادتنا وهدفنا و دعوتنا و شعارنا وهـى مدرسـتنا الأدبيـة التى نحن من روادها وطلائعها! وقد عاهدنا الله عزوجل على شرف الكلمة و كلمة الشرف على ألسنتنا و بأقلامنا فى ظلال رابطة الأدب الإسلامي العالميـة التى تستمد وجودها ومنهجها مـن الكتـاب والسـنة فشـرف الكلمـة شـعارنا وكلمة الشرف هدفنا و إلى ذلـك ندعـو وعليـه اعتزمنـا وسـنعيش مـن أجلـه ونموت فى سبيله! وفقنا الله لما يحـب ويرضـاه وهـو ولى التوفيـق وبعونـه تتـم الصالحات!

أ.د . ظهور أحمد أظهر

رئيس التحرير

الإمام أبو الحسن الندوى إقباليا

للأستاذ الدكتور ظهور أحمد أظهر

كم كان الشاعر الفيلسوف والمفكر الإسلامى العلامة محمد إقبال حريصا على أن يخاطب العرب شعب الرسول العربى الخاتم صلى الله عليه وسلم خطابا مباشرا بلغته العربية . وكم كان يتمنى لو أتقن العربية وتمكن من إبلاغ رسالته الفكرية مباشرة بها إلى الشعب العربى الأبى الممتد وطنه من الخليج إلى المحيط! فقد كان يرى أن شعره الفارسى قد نفذ إلى نفوس العجم وأثار فيهم لهيبا من الثورة الفكرية والعملية (فقد اعترف غير واحد من الثوار الإيرانيين أن شعر إقبال هو الذى أثار فيهم الشوق إلى التحرر من قيود الحكم المطلق ورواسب الاستعمار الجديد). وذلك مما جعل إقبال يثق بمدى التأثير الثورى الذى تحمله رسالته إلى أمة الإسلام فى كل مكان، إلا أن عقبة اللغة حالت دون هذه الرسالة والأمة العربية، وذلك ما أقلق إقبال وأحزنه كثيرا كما أحزنه وأقلقه كثيرا أنه رأى أن الأمة العربية تعانى من الجهل والغفلة والتخلف فوق ما كانت تعانيه من كيد الاستعمار ووطأته، فحاول بكل ما كان فى وسعه أن يبث إلى العرب رسالته وأراد أن يفيقهم من سباتهم العميق ويوقظهم من رقدتهم الطويلة لكى يتمكنوا من استعادة مجدهم الذاهب وشرفهم السليب. وبالتالى يقوموا بقيادة أمة الإسلام فى صحوتها المباركة

والدفاع عنها خلال معركتها المصيرية والنهوض بها للقيام بدورها فى الموكب الحضارى البشرى، إذ كان إقبال يرى، وهو على حق ومصيب فيما رأى، بأن العرب وحدهم يستطيعون أن ينهضوا بهذه المهمة من القيادة ، وهم أهلها وأحق بها، ويتضح ذلك من موقف إقبال الذى اتخذه فى مسئلة الحجاز من تائيد الملك عبدالعزيز ابن سعود و رفض إطلاقا أن يوافق بعض القادة المسلمين من أهل شبه القارة الذين طالبوا بتنصيب الخليفة العثمانى المخلوع حاكما على الحجاز، وقال إن ابن سعود قوة جديدة ناهضة، ومن المتوقع أن يقود هو أو أحد أبنائه وخلفائه الأمة الإسلامية ، وأيضا كان يرى إقبال بأن أمر المسلمين لن يستيقم إلا إذا قادهم العرب، فهم أخلاف الرعيل الأول من العرب المسلمين، رواد الرسالة الخاتمة ، وهم أول من خوطبوا بها فأبلغوها إلى البشرية كافة فى مشارق الأرض ومغاربها عند ما خرجوا غزاة فاتحين ومبشرين وُعاظا! وكذلك اليوم تستطيع الأمة العربية أن تتحمل هذه المسئولية من قيادة العالم الإسلامى وتقوم بدورها القيادى فى الصحوة الإسلامية المعاصرة ، فى مثل هذه الظروف الخطيرة واللحظات الحاسمة من تاريخ الإسلام لابل من تاريخ البشرية كلها! وبذلك يصلح به آخر هذه الأمة كما صلح أولها، فتسود اليوم كما سادت بالأمس البعيد!!

فهذه كانت هى أمنية إقبال ورأيه فى مصير الأمة العربية ودورها القيادى، ولكن الذى أحزنه وأقلقه كثيرا هو أن شعره وفكره لم يُصل إلى العرب، وهو لم يكن يقدر على أن يخاطب العرب خطابا مباشرًا بلغتهم فيفهموه كما فهمه ويفهمه الإيرانيون من أهل العجم فانبرى قائلا شاكيا فى ديوانه "رسالة المشرق":

نواى من بعجم آتش كهن برا فروخت

عرب زنغمه شوقم هنوز بى خبر است!!

"أى أن شعرى قد أثار ضجة وأشعل نارا فى نفوس العجم! أما العرب، فمع الأسف الشديد، لا يزالون يجهلون أنا شيدى المثيرة المليئة شوقا ونشاطا وكفاحا!!"

وهذه هى أمنية إقبال وفكرته التى قد عبر عنها الشاعر العربى العظيم الدكتور عبدالوهاب عزام، رحمه الله، سفير مصر الأول لدى حكومة باكستان حين قال:

قُلتَ فى العجم وقدةٌ من غنائى

وما درى العُربُ من غنائى شيئا

وأرى العُربَ شِعرَكَ اليوم تروى

و تغنى بلحنه عربيا!!

ومما يدل على اهتمام إقبال بالعرب واحترامه لهم هو حبه للغة العربية ورغبته فيها فقد كانت أرض العرب هى الأرض الأجنبية الأولى، خارج شبه القاره، قد وطئتها أقدام إقبال وقد سافر للدراسات العليا إلى أوربا فى سنة ١٩٠٥م فمرت سفينته بالموانئ العربية ومنها بور سعيد، الميناء البحرى المصرى فأرست به سفينة إقبال فنزل منها ليشترى بعض ما كان يحتاج إليه و رأى العرب المصريين العاملين والموظّفين بالميناء فيقابلونه بالإضافة إلى أعضاء جمعية الشبان المسلمين فسر بلقائهم وأعجب بحديثهم بالعربية، وقد فهمه فهما مباشرا ولكنه لم يستطع أن يرد عليهم بالعربية وقد ، سجل إقبال انطباعاته عن هذا اللقاء الأخوى والحديث العذب الذى جرى بينه و بين الشباب العرب فى رسائله التى بعث بها إلى بعض أصدقائه وأقاربه، ووصف فيها

بعض الشباب المصريين الذين تحدثوا إليه بالعربية الفصحى فقال إنهم كانوا يتحدثون بأسلوب البديع الهمذانى وأبى القاسم الحريرى! ذلك الأسلوب المتكلف العقيم الذى بهر إقبال وخوفه من العربية الثقيلة فلم يخترها كأداة شعرية له يخاطب بها العرب خطابا مباشرا!!

ومما يدل على ذلك أيضاً هو اهتمام إقبال بالأزهر الشريف وشيوخه وأساتذته، وعلى رأسهم الشيخ المراغى، رحمه الله، شيخ الأزهر فى وقته! فقد راسله عن القضايا الإسلامية واستشاره فيها ورجاه غير مرة أن يرشد مسلمى شبه القارة وينصح لهم ، ومن ذلك رجاؤه الملح من فضيلة الإمام الأكبر ليتكرم بإرسال وفد مصرى مكون من شيوخ الأزهر الإفاضل ليتفقدوا شئون مسلمى شبه القارة الذين دهاهم خطر التنصير خلال الحكم الاستعمارى البريطانى البغيض، وفعلا قد جاء وفد الأزهر إلى الهند وزاروالاهور وقابلوا إقبال وناقشوا معه قضية التنصير وأشاروا عليه بما يلزم من اتخاذ الخطوات فيها، وقد زار إقبال القاهرة فى سنة ١٩٣١ وهو فى طريقه إلى القدس الشريف ليشارك فى المؤتمر الإسلامى على دعوة من مفتى فلسطين الأكبر الشيخ أمين الحسينى، رحمه الله، وكانت زيارة إقبال هذه مفيدة مثمرة جدا، حيث زار الأزهر الشريف وقابل فضيلة الإمام الأكبر وزملاءه الأفاضل فتناقشوا القضايا الإسلامية ومستقبل أمة الإسلام كما أن جمعية الشبان المسلمين كانت قد دعته إلى مقرها وأقامت حفلة استقبال تكريما له، وقد ألقى إقبال كلمته بالمناسبة باللغة الإنجليزية وترجمها إلى العربية الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوى، وكان أستاذ الكيمياء بجامعة القاهرة أو الجامعة المصرية فى وقتها، وهنا، فى هذا المقر، قدتم اللقاء بين إقبال وبين الدكتور عبدالوهاب عزام الذى كان طالبا جامعيا آنذاك، وهو الذى أخذ على عاتقه وفى عهدته أن

يعرِّف إقبال بالعالم العربى ويترجم شعره إلى العربية شعرا · وله منة وفضل على إقبال وعلى مسلمى شبه القارة عامة وعلى أهل باكستان خاصة! وأما زيارة إقبال للقدس الشريف وسفره إليه من مصر · مارا بالعديد من المدن الفلسطينية ومحطاتها للسكك الحديدية· فقد كان كل ذلك من المؤثرات الفعالة التى تركت ذكريات عاطرة وآثارا باقية طيبة ليس فى ذاكرة الشاعر فحسب بل فى صفحات التاريخ المتلألئة· وقد سجل الشاعر بعض هذه الذكريات والآثار فى شعره كما سجل البعض الآخر فى رسائله ومذكراته· فمن ذلك ذكريات الشاعر وانطباعاته عن المدن المصرية والفلسطينية مثل غزة وخان يونس وكفر الشيخ ومدينة القدس وغيرها· ومنه قطعة إقبال الشعرية عن فتح الأندلس وخطبة طارق بن زياد البربرى · والتى ألقاها أمام جيشه الغازى الفاتح بعد أن أحرق السفن البحرية التى حملت الجيش عبر المحيط ووصلت به عند جبل الطارق· وكان مما قاله طارق (على لسان إقبال طبعا!): إن العدو أمامنا والبحر وراءنا ولم يبق لنا اختيار إلا الهجوم على عدونا فإما ننتصر بإرادة الله أو نموت فى سبيله! وليس وراءنا مذهب ولا سبيل إلى الفرار أو النجاة! وقد رد على سؤال بعض الجنود الذى قال له: تركنا الوطن وراءنا وقد أحرقت السفن التى كان بإمكانها أن تعود بنا إلى بلادنا ووطننا وفعلتك هذه غير معقولة؟! فرد عليه طارق بقوله وهو يأخذ بقبضة سيفه: سوف نقاتل بإرادة الله! وبإرادة الله سوف ننتصر! وتأكدوا أيها الجنود! كل البلاد بلادنا لأنها بلاد ربنا عزوجل! (هر ملك ملك ما است كه ملك خداى ما است! مصراع فارسى من القطعة التى قالها إقبال بالمناسبة فأرسله مثلا يجرى على لسان كل من يعرف الفارسية من القلوب المؤمنة!!)

وقد ذكر غير واحد من الناس الذين حضروا الجلسة التى أنشد فيها اقبال قطعته الشعرية الفارسية هذه ، وكان قد ترجمها إلى العربية العلامة طباطبائى رئيس وزراء إيران فى وقته، والذى كان من بين المندوبين للمؤتمر الإسلامى ، وانفجر طباطبائى باكيا حين أنهى الترجمة وبكى الجمع المحتشد فأثاروا ضجّة وعويلا! وأخذوا يبالغون فى استحسان الفكرة الشعرية وأسلوب إقبال الرائع والموقف المسرحى الجميل فى قطعة شعرية صغيرة، فاصبح اليوم مشهودا كما صار إقبال شاعرا ممدوحا! وتركت القطعة الشعرية ذكرى خالدة فى ذاكرة الناس والتاريخ! ومن بين هذه الذكريات الخالدة العاطرة قصيدة إقبال الشعرية التى قالها فىفلسطين وهى فى ديوانه (جناح جبريل) وعنوانها "ذوق وشوق" أى تذوق واشتياق! وهى من روائع شعر إقبال وتكاد تضاهى قصيدة الشاعر المعروفة عن (جامع قرطبة)، ففى هذه القصيدة الرائعة، التى يفتتحها إقبال ببيت شعر فارسى للشيخ مصلح الدين السعدى الشيرازى، وفى نفس الوزن أو البحر الشعرى، يتجلى إقبال فى زى شاعر عربى ويقلده فى معانيه وأفكاره وفى لفظه وأسلوبه، وربما يقصد به إقبال الشاعر المصرى المعروف محمد بن سعيد البوصيرى، رحمه الله، فى بردته المعروفة والقصيدة التى قد قالها إقبال وهو فى أرض فلسطين وقد رأى القدس الشريف واتجه نحو هدفه ومنزله فإذا به يرى مشهد الصبح البادى فى أرض عربية قد زانتها جبال وهضاب وأشجار وسحاب وشمس مشرقة. فأخذ إقبال يصور منظر الصبح الرائع فى كلماته الشعرية ، ولكن على طريقة الشعراء العرب ودأبهم وتقاليدهم الشعرية إلا أنه لا يضل نفسه ولا يفنى وجوده فى أسلوبهم وإنما يبقى إقبال بعبقريته المستقلة النادرة فكأنها هى معان عربية بكلمات أردية وبأسلوب إقبال الرائع، لو حولها شاعر عربى من أمثال الشيخ

الصاوى على شعلان المصرى، رحمه الله، إلى العربية شعرا لأصبحت القصيدة من روائع الشعر العربى!

ومما يدل على أن إقبال كان يهتم بالعربية والعرب أيضا ويود لو أمكن له أن يخاطب العرب خطابا مباشرا أو يتمكن من العروبة كما تمكن منها غير واحد من العجم أو المستعربين، هو خطابه الأمة العربية فى قصيدته الفارسية التى أهداها إلى العرب والعروبة أو حين خاطب ملوك العرب المعاصرين له من أمثال عبدالعزيز ابن سعود وغيره، أو حين دعا الشعراء العرب الذين هم أهل لغة القرآن ولكنهم لم يقدموا فى شعرهم ما جاء فيه من الحكم والمواعظ ومن المعانى والأفكار إلى الإنسان المعاصر الذى هو فى أمسّ حاجة وأشدها إلى هذه المعانى والأفكار والمواعظ والحكم، ويقول لهم بأنه شاعر هندى يرجع أصله إلى أسرة البراهمة أو البناديت من رجال الدين الهنادكة، ورغم أنه لا يقدر على قرض الشعر بالغربية إلا أنه قد استطاع أن يبلغ رسالة القرآن إلى الإنسان المعاصر، وقد تمكن من إبلاغ المبادئ الإسلامية السامية إلى الناس كافة، أما هؤلاء الشعراء العرب، فرغم علمهم بالعربية وقدرتهم على التعبير بها، لم يدرسوا القرآن الكريم و لم يدركوا، كما درس و أدرك إقبال، ما جاء فى هذا الكتاب الحى الخالد من رسالة سامية خالدة إلى البشرية كافة! فهذا وذلك كله يدل على أن إقبال كان يهتم بالشعب العربى فى المقام الأول ويرى له حق القيادة الإسلامية ويود لو بلغته رسالته الشعرية التى تدعو فيها الأمة إلى أن تعود إلى القرآن الكريم فتعتصم بحبل الله المتين، وإلى العروة الوثقى التى لا انفصام لها، وهى آخر رسالات الله إلى البشر وبإمكانها أن تقوم بدور ثورى اليوم كما قام به بالأمس!

وكان إقبال قد بدأ يقول الشعر بالأردية وفضّلها على لغة أمه البنجابية ،كما فضلها على الفارسية لغة الثقافة الإسلامية في الهند في وقتها ولغة الآداب الواسعة، وذلك لأنه أراد أن يخاطب أكبر عدد ممكن من عامة المسلمين في شبه القارة ، والبنجابية كانت ولا تزال لغة إقليمية محلية كما أن الفارسية لم تكن لغة عامة الشعب من المسلمين، وإنما كانت لغة المثقفين فقط، ولكنه فيما بعد رأى أن يميل إلى اللغة الفارسية التي كانت أوسع مجالا من الأردية بالإضافة إلى تخلفها حيث كانت في دور نشأتها ولم تكن تسع رسالة إقبال الواسعة المدى العالمية الأثر، ومن ثم تحول إقبال إلى الفارسية التي لم تزل إلى وقته لغة الوثائق الرسمية في بلاد شبه القارة رغم طغيان الإنجليزية واهتمام الناس بها وإقبالهم عليها، وبالإضافة إلى كون الفارسية لغة الأدب والثقافة عند المثقفين من مسلمي شبه القارة، فقد كانت هي لغة التخاطب والثقافة والأدب واللغة الرسمية ليس في إيران فحسب بل في أفغانستان ودول آسيا الوسطى وحتى في تركيا العثمانية حيث كانت هي لغة الشعر والأدب، والفارسية كما هو معروف عنها، هي أسهل وأحلى لغة من بين لغات المسلمين جميعا، وقد استطاع إقبال أن يقرض الشعر باللغة الفارسية بكل سهولة ويسر، وقد اتضحت لديه قدرة عجيبة على الفارسية التي فضلها على العربية رغم أنه كان قد تعلم اللغتين الفارسية والعربية كليتيهما من أستاذه الفاضل الشيخ المولوي (مير حسن) السيالكوتي، وأرى أن إقبال كان بإمكانه أن يختار العربية فيقول بها الشعر إلا أنه رآها قد ضلت طريقها وتاهت في ترهات المقامات وضاعت في التكلف من السجع والقافية، ولولا ذلك لاختارها شاعرنا العظيم كأداة التعبير الشعري ولخاطب بها المسلمين جميعا من العرب والعجم والبربر فقد كانت ولا تزال العربية هي لغة قرآنهم ولغة دينهم ولغة وحدتهم الشاملة!

على كل حال فقد بدأ إقبال يقرض الشعر بالأردية، لغة البلاط المغولى ولغة الجيش الملكى فى كل مكان من شبه القارة ولغة التفاهم بين المسلمين والهنادكة فى البلاد، وكانت قد أصبحت لغة الأدب والثقافة حيث أخذت تحل محل الفارسية التى حلت محل العربية وقد أصاب الفارسية ما كان قد أصاب العربية فى وقتها من التكلف والتخلف والثقل وكادت تطردها الفارسية من البلاد لولا القرآن الكريم والعلوم الدينية والمعارف الإسلامية الواسعة التى لا توجد فى غيرها من اللغات . فعاشت العربية فى شبه القارة فى كنف القرآن الكريم والإسلام! وأما الفارسية فقد انتهى دورها فى بلاد شبه القارة ، وعلى رأسها باكستان، ولا ندرى أيعود الناس إليها أم لا، أو تعيد هى كرتها بحكم كونها لغة المعارف الثقافية والفنون الأدبية، ولغة شعر إقبال، ولغة المصادر التاريخية الإسلامية فى بلاد شبه القارة، ولأنها تمد الأردية لغة باكستان القومية! ولكن هذا قرار لما يتخذه التاريخ بعد!

وقد تمنى إقبال منذ الخطوة الأولى من مسيرته الشعرية الطويلة، أن تعود أيام العدل الإسلامى حيث عاش الناس فى عيشة راضية وحياة الأمن والرخاء، ولم تزل أمنيته هذه تشتد وتتجدد كل يوم بأساليب شعرية متنوعة ولم تنقطع هذه الأمنية يوما وإنما استمرت إلى انفاسه الأخيرة، فقد بدأ إقبال يقول الشعر بالأردية وهو يتمنى أن يعود العصر الإسلامى أو عصر صدر الإسلام على الأمة الإسلامية فتتحرك قافلتها الحضارية من جديد كما كانت قد تحركت فى الوهلة الأولى من تاريخها فقادها القائد الحجازى، حسب تعبير إقبال اللفظى، محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد عاشت هذه الأمنية فى نفس إقبال طوال حياته فلم تنقطع ولم تفتر وإنما ازدادت قوة وظهورا واشتد نارها وأوارها إلى أن حانت منيته وهو يتمنى أن ينشأ شاعر آخر غيره

فيستلم الدور الذى قام به إقبال من إيقاظ الأمة الإسلامية والدعوة إلى استئناف السفر السعيد والمسيرة المقدسة، ويتحمل مسئولية القيام بواجب الدعوة إلى الخير وتحقيق ما تمناه إقبال ولكنه لم يتمكن من تحقيقه! فقد تمنى إقبال أن تتحرك قافلة الحق - قافلة الإسلام من جديد، فتبدأ مسيرتها الثانية فيقودها المصطفى صلى الله عليه وسلم بهديه وشريعته كما تحركت القافلة الحجازية الأولى قافلة الصحابة رضى الله عنهم وقادها الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويخيل إليه وكأنه هو منادٍ ينادى برحيل هذه القافلة الحجازية المعاصرة عن جديد ويقودها القائد الحجازى محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم و عن ذلك يقول إقبال:

سالار كاروان هَى مير حجاز اپنا

اس نام سى هَى باقى آرام جان همارا

اقبال كا ترانه بانگ درا هَى كَويا

هوتا هَى جاده پيما پهر كاروان همارا

"أى أن قائد قافلتنا هذه إنما هو القائد الحجازى المصطفى صلى الله عليه وسلم واسمه المبارك هذا إنما هو ضمان نجاحنا ومصدر راحتنا وسكينة أرواحنا، وانشودة إقبال هذه إنما هى صوت الجرس الذى يعلن بالرحيل وفيتحرك القافلة الحجازية من جديد فى سفرها المقدس اليوم كما كانت قد تحركت بالأمس فى قيادته الرشيدة!!"

فكذلك قد بدأت مسيرة إقبال الشعرية واستمرت على ذلك المنوال طوال حياته وهو يغنى بأمجاد العرب المسلمين الأوائل ويعتز بما حقّقتهُ قافلة الإسلام (أو قافلة الحجاز إذا أردنا أن نعبر كما عبر عنها إقبال!) فى المرحلة الأولى من تاريخها فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه البررة

الكرام رضى الله عنهم، وراح يتابع آثار هذه القافلة الحجازية الإسلامية فى مسيرتها المقدسة من الفتوح وانتشار الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها إلى أن حضرته الوفاة وانقضت أيامه من حياته الفانية وانتهى به المطاف وكاد يجود بأنفاسه الأخيرة وعلى لسانه نفس أناشيد الحجاز ونغماته وهو يمجد مدنية الحجاز ويتمنى على الله سبحانه وتعالى أن يبعث شاعرا إسلاميا آخر من طرازه أى من طراز إقبال ونزعته، لكى يخلفه فى القيام بالدور الذى قام به هو طوال حياته من تمجيد المدنية الحجازية الإسلامية والاعتزاز بها وإبراز ما تتضمنه من المزايا الخاصة بها والدور البناء النادر الفريد الذى قامت به فى تاريخ الأمم والشعوب، تراه قد ارتفعت نظراته إلى السماء وهو يتضرع إلى ربه الجليل عزو علا ويقول:

سرود رفته باز آيد كه ناید
نسيمى از حجاز آيد كه ناید
سرآمد روز گار اين فقيرى
دگردانائى راز آيد كه ناید!

هل سيعود النشيد الذى قد مر و انقضى أم لا؟!
وهل سيهب نسيم من الحجاز أم لا؟!
إن دور هذا الدرويش كاد ينتهى!
فهل سيأتى فرد فريد آخر يعرف الأسرار أم لا!

وقد حول الدكتور عبدالوهاب عزام قطعة إقبال الشعرية هذه إلى العربية شعرا فقال:

نغمات مضين لى هل تعود ... أنسيم من الحجاز يعود
آذنت عيشتى بوشك رحيل ... هل لعلم الأسرار قلب جديد؟!

وكان إقبال يحب الرسول صلى الله عليه وسلم حبا شديدا كما كان يكرمه تكريما بالغا للغاية، ويرجع ذلك الحب النبوى لما ورثه إقبال من أبويه الصالحين حيث تربى فى أحضانهما وغذى بحب النبى صلى الله عليه وسلم تغذية صالحة قد جعلته يتمحس للدين ويفدى رسوله بقلبه وروحه و لم يكن يسمى الرسول وأصحابه أو يذكرهم بأسمائهم فى شعره كلما ذكرهم، وإنما كان يلقبهم بألقاب لم تعرف قبل إقبال، وإنما هو الذى ابتكرها ابتكارا فقد كان يلقب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسول الهاشمى وسيد العرب والقائد الحجازى أو الصديق الحجازى صلى الله عليه وسلم، وقافلة الحجاز أو قوم الحجاز هم أصحاب النبى ومن تبعهم من الرعيل الأول، ومدنية الحجاز أو المدنية الحجازية عند إقبال إنما هى المدنية الإسلامية أو الإسلام نفسه! وهذا الحب النقى والتكريم البالغ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه الكرام قد جعل إقبال ينذر نفسه وحياته للدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن شريعته التى جاء بها وعن امته التى كانت تعانى من وطأة الجهل وقد التخلف وأحاطت بها المكاره والآلام فكافح من أجلها لينقذها من رواسب التخلف والجهل والعبودية والاستعمار بالإضافة إلى التمذهب الجاف والتفرقة العنصرية والفوارق المتعادية، وظل إقبال ينادى بمبادئ الإسلام وأسسه، ويدعو البشرية إلى المعانى الخلقية والأفكار السنية القويمة التى يرغب فيها الإنسان الحر المثقف المعاصر. وقد ركز اهتمامه على مجد العرب الأوائل ودعوة المسلمين إلى الاعتراف بقيادتهم. ورفض أن يعترف بقيادة غيرهم. ويتضح ذلك أيضا من نقده لمصطفى كمال الزعيم التركى ورضا شاه الإيرانى فيقول إنهما قد فشلا فى دورهما القيادى. ولا يجوز للشرق الإسلامى أن يعلق عليهما آمالاً مستقبلية للقيادة فيقول إقبال:

مـــرى نوا، سى گريبان لا له چاك هوا

نسيمِ صبح چمن كى تلاش مين هَى ابهى

نه مصطفى نه رضا شاه مين نمود اس كى

كه روحِ مشرق بدن كى تلاش مين هَى ابهى!

مرى خودى بهى هَى سزا كى مستحق ليكن

زمانه دار و رسن كى تلاش مين هَى ابهى!!

ويعنى أن نسيم الصباح لا يزال يهيم فى البحث عن الحديقة حتى الآن، و لكننى أنا قد افترست بصوتى الصارخ ياقة الخزامى من تلك الحديقة نفسها (صوتى أسرع من النسيم!) وكذلك روح الشرق لا تزال تبحث عن جسد بشرى يليق بقيادة الشرق الإسلامى لأننى لست أرى الملامح القيادية فى مصطفى كمال ولا فى رضا شاه!! وقد كانت فكرة الذاتية التى أنادى بها جديرة بالعقوبة إلا أن الزمان لا يزال يبحث عن الصليب والمشانق إلى الآن (أى هذه الدعوة كانت خطيرة إلا أن العدو المستعمر لم يشعر بخطورتها بعد!!).

إن أخوف ما كان يخافه إقبال ويخشاه على العرب هو إبعادهم عن الإسلام وحرمانهم من حب النبى صلى الله عليه وسلم وطاعته والاتباع بسنته والعمل بتعاليمه. وله قطعة شعرية فى ديوانه" ضرب موسى الكليم عليه السلام وعنوانها: "فرمان إبليس إلى أبنائه السياسيين"

وه فاقه كش كه موت سى دُرتا نهين ذرا

روح محمد اس كى بدن سى نكال دو!!

فكرِ عرب كو دى كى فرنكى تخيلات

اسلام كو حجاز و يمن سى نكال دو!!

أى ذلك الفقير المعدم الجائع (أى العربى المسلم!)، الذى لا يخاف الموت، يجب أن تسلبوا منه حب النبى صلى الله عليه وسلم وتحرموه من روح محمد صلى الله عليه وسلم! وعليكم أن تفسدوا فكر العرب بتطعيم الأفكار الغربية، وحينئذ تتمكنون من طرد الإسلام من الحجاز واليمن بكل سهولة!!

وقد ظل إقبال يخاطب العرب فى شعره – رغم عدم القدرة على التعبير المباشر بالعربية – فمرة يذكّرهم بما ضيهم المجيد من دمشقهم وبغدادهم ومصرهم وفلسطينهم، وأخرى يتأسف على شعراء العرب الذين لا يتأثرون بمعانى القرآن الكريم ورسالته الخالدة رغم أنهم أهل اللغة ويفهمون القرآن مباشرة وهو – أى إقبال – رغم كونه هند يا ومن سلالة البراهمة، قد تعمق فى بحر القرآن وغاص فى أعماقه فأخرج اللآلى والجواهر من المعانى والأفكار التى تكاد تخترق السماء وتنشق بها الأرض! وله قطعة شعرية وعنوانها "إلى أمراء العرب" يخاطب بها أمراء العرب وقادتهم فيقول لهم:

كرى يه كافر هندى بهى جرئت گفتار
اگر نه هو امراى عرب كى بى ادبى
يه نكته سكهايا گيا كس امت كو پهلى
وصال مصطفوى، افتراق بولهبى!؟

"هل يستطيع هذا البراهمى الهندى أى إقبال ، أن يجترئ على الحديث معكم أيها الأمراء العرب! إذا لم يكن ذلك من الإهانة لكم فسمحوا لى بذلك فأسائلكم وأقول: أيها السادة! من هم أول شعب من بين شعوب العالم الذين تعلموا هذه النقطة وهى: أن الوصل والوحدة حق وفكرة مصطفوية ، وأن الافتراق كفر و باطل وهو عمل عدوا الله أبى لهب!!"

وله شعر فارسى وأردى كثير يحفل بحبه للعرب واهتمامه بهم ودعوته لهم إلى الحق والعز والشرف والكرامة والعودة إلى حياض الإسلام الذى وحد كلمتهم فجعل منهم أمة موحدة فاتحة قاهرة قامت بدور فى التاريخ ليس له نظير ولا مثال. أفليس من حق إقبال أن يحزن على عدم القدرة على الخطاب المباشر للعرب بلغتهم؟! أو ليس من واجب العرب أن يطلعوا على ما قال لهم إقبال؟! نعم! كل ذلك حق و واجب! فقد كان إقبال على الحق إذ أسس شاعريته على حب الرسول صلى الله عليه وسلم وحب شعبه العربى العظيم وراح يمجد ماضيه الإسلامى الناصع المليء بالعظمة والجلال والحافل بالأمجاد الفاخرة والفتوح الباهرة والمآثر النادرة من العلم والأدب والثقافة والحضارة والفنون! فهذه هى المعالم التى اهتدى بها إقبال فى سفره الطويل من الحياة وفى مسيرته الشعرية التى تمتد إلى نصف القرن من الزمان تقريبا!

إن إقبال على حق حين يتأسف على حرمانه من الثقافة العربية ومن قرض الشعر بلغة الناطقين بالضاد. ومن الخطاب المباشر إلى الأمة العربية. وهو على حق أيضا حين يبدأ مسيرته الشعرية الطويلة بالحديث عن الرسول العربى الهاشمى والقائد الأول لقافلة أمة الحجاز. وليس به عيب حيث يتمنى فى أنفاسه الأخيرة أن يبعث الله شاعرا مثله يذود عن مجد المدنية الحجازية الإسلامية ويدافع عن أمة الإسلام ويضئ لها مصابيح الفكر والإرشاد كما دافع عنها إقبال وأضاءها الطريق فى الظلام الحالك وأن . يكون مثله نسيم الحجاز وترجمانه ويفتخر بكل ذلك كما كان إقبال. يفتخر به منذ البداية إلى النهاية!

وقد مر إقبال ببلاد العرب وهو فى طريقه إلى أوربا للدراسات العليا، وقلبه يتدفق شوقا إلى رؤية العرب شعب النبى صلى الله عليه وسلم ومن سلالات المسلمين الأوائل من الصحابة والتابعين، ويكاد يتفجر قلبه حزنا على حرمانه من زيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم، والتسليم عليه بمدينته المنورة، وقد مرت سفينته بالموانى، العربية من عدن والسويس وبور سعيد ولكنه لم يجد فرصة الزيارة للحرمين الشريفين وقد سجل إقبال بعض ذكرياته عن هذا السفر البحرى فى الرسائل التى بعث بها إلى أصدقائه وأقاربه وهى كلها تنم عن فرح إقبال وحزنه فى نفس الوقت، فقد سُرَّ إقبال لأنه التقى بالعرب من الرجال والشباب، وقد أحزنه كثيرا حين لم يتمكن من الحديث إليهم مباشرة بلغتهم وإنما لجأ إلى الإنجليزية للتفاهم معهم! ثم أتيح لإقبال أن يزور مصر وفلسطين وقد سرته اللقاءات مع العرب المثقفين الأفاضل، ولكنه قد حزن كثيرا حين وجد العرب لا يعرفون شيئا عنه ولا عن شعره وفكره وفنه! وعاش إقبال بينهم أياما كثيرة ولكنه لم يستطع أن يخاطبهم بلغتهم وإنما بقى يحتاج إلى من يقوم بدور المترجم بينه وبين إخوانه العرب الكرام، وقد عاد إقبال من سفرته الفريدة المفيدة التى تركت فى نفسه ذكريات جميلة عاطرة ولكنه فى نفس الوقت كان حزينا كئيبا لأنه لم يتمكن من إبلاغ رسالته إلى شعب الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى ورثة الموكب الحضارى الإسلامى الذى ظل إقبال يمجده طوال حياته ويفتخر بما قام به وحققه هذا الموكب الحضارى العظيم من الدور البناء النافع فى تاريخ الحضارات والشعوب! ذلك الدور البناء النافع الذى غير مجرى التاريخ وغير القيم الحضارية من الأقبح الضار إلى الأحسن المفيد ومن استغلال المستضعفين على أيدى المستكبرين إلى تكريم كل فرد من أفراد المجتمع على مبادئ الوحدة البشرية والمساواة والأخوة الإسلامية